

الدرس التاسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى أصحابه أجمعين. أمّا بعد:

الناقض الثامن من نواقض الإسلام : «مُظَاهَرَةُ الْمُشْرِكِينَ وَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾» هذا هو الناقض الثامن من نواقض الإسلام العشرة «مُظَاهَرَةُ الْمُشْرِكِينَ وَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ» ، والمظاهرة والمعاونة معناهما متقارب؛ مظاهرة المشركين أو معاونتهم : أي مساعدتهم ونصرتهم وتأييدهم.

قال: «مُظَاهَرَةُ الْمُشْرِكِينَ وَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ» أي لو أنّ إنساناً نصر المشركين في قتالهم للمسلمين وعاونهم وساعدهم وأيدهم وظاهرهم فإنه يكون بذلك كافراً أكبر ناقلاً من ملّة الإسلام، لأنّ هذه المظاهرة والمعاونة لأهل الكفر على أهل الإسلام دليل على عدم قيام الإسلام في قلب من ظاهر المشركين وعاونهم على أهل الإسلام. فإذا كان يظاهرهم ويعاونهم على المسلمين ويحبّ انتصارهم ، ويجب انهزام المسلمين ويفرح بانهزام المسلمين، ويسرّ بانتصار المشركين ؛ فهذا دليل واضح على انتفاء الإسلام وعدم قيامه في القلب ، لأنّ وجود الإسلام يقتضي نصره أهله ومحبة انتصارهم، ويقتضي معاونتهم ومظاهرتهم ومساعدتهم ؛ أمّا إذا كان على خلاف ذلك فهذا دليل على عدم قيام الإسلام في قلب من ظاهر المشركين وعاونهم على المسلمين. قال: «مُظَاهَرَةُ الْمُشْرِكِينَ وَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ».

قال: **وَالِدَّلِيلُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾** أي الكفار المشركين ﴿مِنْكُمْ﴾ أي من أهل الإسلام ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ بمعنى أنّه يكون بذلك كافراً وينتقض بذلك إسلامه بتوليّه للكفار ، قال: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْهُمْ﴾ والتوليّ للكفار الذي هو كفرٌ ناقل من ملّة الإسلام هو: المحبة التامة للكافرين وحب انتصار دين المشركين، ومناصرة المشركين على المسلمين لينتصر دينهم على دين الإسلام، فمن كان بهذه الصفة فهو من الكافرين ، قال: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي من كان بهذه الصفة فهو من الكافرين ، من أهل الكفر ليس من أهل الإسلام. وهذا فيه أن التوليّ للكافرين كفرٌ ناقل من ملّة الإسلام، ويدخل تحت التوليّ للكافرين محبة انتصار دينهم ، ونصرتهم ومعاونتهم لينتصر دينهم على دين الإسلام، ومحبتهم لدينهم لا لدنيا، يحبهم لدينهم، فهذا يسمى «توليّ» ، والتوليّ كفرٌ ناقل من ملّة الإسلام. وينبغي أن يفرّق بين التوليّ والموالاة:

- التوليّ : هو المحبة التامة ونصرة الكافرين لدينهم، لينتصر دينهم على دين الإسلام، ومحبة انتصار دين الإسلام وميل القلب إليهم نصرَةً وعوناً وتأيداً ومحبة؛ فهذا يسمّى «توليّ» وهو كفر ناقل من ملّة الإسلام.
- وأمّا الموالاة فهي دون ذلك؛ الموالاة: هي محبة الكافر لدنيا لا لدينه، أن يحبّه لدنيا لا يحبّه لدينه، وأيضا نصرّة الكافر لدنيا لا لدينه، مثل أن ينصر الكافر أو يعينه في قتاله للمسلمين، أو يدلّه على شيء من مخططات المسلمين لا لدين الكافر وإمّا لدنيا يريدّها من الكافر ، مثل أن يكون له تجارة في بلادهم أو يكون له أهل في بلادهم فيريد أن يكون له يد عندهم، فهو لا يحبّهم ولا يحبّ دينهم ولا يحبّ انتصار دينهم، وليس كارهاً للدين الإسلامي ولا محبّاً لانحزام المسلمين، كلّ هذه المعاني ما قامت فيه، لكنّه عاونهم في شيء ما من أجل دنيا له ، مثل تجارة أو أهل أو نحو ذلك؛ فهذا لا يكون ناقضاً من نواقض الإسلام، وهو إثم ومحرم وأمر عظيم لكنّه لا ينتقض به إسلامه، انتقاض الدين يكون بالتوليّ كما في الآية الكريمة ﴿وَمَنْ يُتَوَلَّهِمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي مثلهم كافر.

أمّا الموالاة فهي دون ذلك. ومثل ما حصل من حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه لما كتب للمشركين كتاباً وبعثه مع امرأة إلى كفّار قريش يخبرهم بأنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم يخطّط لفتح مكّة، فعلم النبي عليه الصلّاة والسلام أطلعه الله عزّ وجلّ على ذلك وبعث بعض الصحابة وأدركوها في الطريق ووجدوا الخطاب معها، فأتى بحاطب وأقرّ بذلك، وقال رضي الله عنه: «والله ما فعلت ذلك تركاً للإيمان أو تخليّاً عن الإيمان أو كفراً بالله سبحانه وتعالى، ولكن لي أهلٍ ومال فأردت أن يكون لي يدٌ عندهم» ؛ فلم يكن بذلك كافراً منتقلاً من ملّة الإسلام ، لأنّ هذا ليس تولي للكفار، لم يتولّ الكفار، لم يقيم في قلبه حب تامّ لهم، ولم يقيم في قلبه رغبة في انتصار الكفر والكافرين وانحزام المسلمين، لم يقيم ذلك في قلبه وأخبر النبي عليه الصلّاة والسلام بذلك، والنبي عليه الصلّاة والسلام أقرّه .

فالتوليّ: هو المحبة التامة للكفار، وإرادة انتصار دين الكافرين على دين المسلمين ومعاونة الكافرين لينتصر دينهم على دين الإسلام، والفرح والسرور بانتصار الكفار وانحزام المسلمين؛ هذا تولي للكافرين وهو كفر ناقل من ملّة الإسلام لا يقع من مسلم، ومن وقع منه ذلك فهو كافر كفراً أكبر ناقل من ملّة الإسلام. وأمّا الموالاة : فهي محبة الكافر لدنيا ومعاونته لدنيا ، ليكون له يد عند الكافر أو نحو ذلك، فهذا ليس من الأمور التي ينتقض بها الإسلام وهو من العظائم، وهو ذنب عظيم وجرم وإثم عقوبته عند الله عظيمة لكنّ فاعل ذلك لا يكون به مرتدّاً كافراً منتقضاً دينه وإيمانه.

والمصنّف رحمه الله تعالى استدللّ لذلك بقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ فالظلم هنا: الكفر.

لأنّا عرفنا فيما سبق أنّ الظلم له إطلاقات، فتارة يطلق ويراد به الكفر الأكبر الناقل من ملة الإسلام، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٢٧] أي الكافرين. وتارة يطلق ويراد به ظلم النفس بالمعاصي والدنوب التي هي دون الكفر بالله، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذَنْ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٢] ، و«الواو» في قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ تشمل الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات؛ فكلّهم يدخل الجنة؛ لكنّ المقتصد والسابق بالخيرات يدخلان الجنة بدون حساب ولا عذاب، وأمّا الظالم لنفسه بالمعاصي والدنوب فإنّه عرضة للعذاب، وإذا عذبه الله في النار فإنّه لا يخلّد فيها؛ إذ لا يخلّد في النار إلاّ المشرك.

فقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ المراد بالظلم هنا: هو المعاصي التي دون الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى، ويدلّ لذلك سياق الآيات؛ لأنّه قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فهم مصطفون وهم من عباد الله، ثمّ ذكرهم أصنافاً ثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد والسابق بالخيرات، ثمّ ختم ذلك بقوله: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي هؤلاء الثلاثة. ثمّ بعد ذلك انتقل السياق إلى الكلام عن الكافر الذي ظلمه ظلم كفر فقال جلّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧] ؛ فقوله هنا: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي الكافرين.

فالظلم في القرآن تارة يطلق ويراد به الكفر الأكبر الناقل من الملة، وتارة يطلق ويراد به الظلم الذي هو ظلم النفس بالمعاصي والدنوب التي هي دون الكفر والشرك بالله تبارك وتعالى.

الشاهد أنّ قول الله عزّ وجلّ في هذه الآية التي ساقها المصنّف رحمه الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين . والشاهد أيضاً في الآية للمقصود وهو ذكر ناقض من نواقض الإسلام ، قوله: ﴿وَمَنْ يُتَوَلَّهِمْ﴾ أي الكفار، ﴿وَمَنْ يُتَوَلَّهِمْ مِنْكُمْ﴾ أي من المسلمين ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي ليس من المسلمين وعرفنا معنى التولي والفرق بينه وبين الموالاة.

ونكتفي اليوم بهذا القدر ، والله تعالى أعلم .

وصلّى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.